

المساجلات الشعرية بالأندلس

مساجلات المعتمد وابن عمّار مصدرا للتاريخ^(*)

بقلم د. جمعة شيخة

(تونس)

المساجلات لغة وإصطلاحاً :

المساجلة لغة من ساجل الرجلُ الرجلُ : باراه ! وهما يتساجلان أي يتباريان، وأصله في الاستسقاء⁽¹⁾، فقد قيل « إِنَّ أصل المساجلة أن يستقي ساقيان فيخرج كل واحد منهما في سجله - وهو الدلو الضخمة - ما يخرج الآخر فأيهما نكل - أي نکص وجبن - فقد غلب. فضربته العرب مثلاً للمفاخرة، فإذا قيل فلان يساجل فلاناً فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب »⁽²⁾. وجمع الشاعر الفضل بن عباس المفاخرة والاستسقاء في قوله (الرمل) :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلْ مَاجِدًا يَمَلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكُرْبِ

وجاء في تاج العروس : « ومن المجاز : ساجله مساجلة إذا باراه وفاخره بأن صنع مثل صنعه في جري أو سقي »⁽³⁾. وقال الجاحظ في كتاب العصا من البيان والتبيين⁽⁴⁾ : « ونبدأ على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوبية... وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المختصرة (العصا) عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون

(*) ننشر هذه الدراسة كنموذج للبحوث التي أقيمت في الندوة العالمية حول «الأدب والثقافة في غربي الاندلس» المنعقدة في لشبونة من 13 - 15 أبريل 2000 ./.

(1) لسان العرب ط. بيروت 1988 ج 6 ص 181.

(2) القاموس المحيط ط. بولاق 1301 ج 3 ص 381.

(3) تاج العروس ط. دار الحياة بدون تاريخ مجلد 7 ص 369.

(4) البيان والتبيين : ج 2 ص 3.

المقفى، والمنثور الذي لم يقف، وبالأرجاز عند المتح⁽⁵⁾». ومما سبق يمكن أن نستنتج ما يلي :

أ- أصل المساجلة : هو أن يتنافس اثنان فوق بئر أيهما يستخرج كمية من الماء أكبر من التي يستخرجها الآخر في سجله وهو الدلو. ومن هذا المنطلق، المساجلة : هي ضرب من المباراة فعلا لا قولاً بين شخصين شبيهة بالمسابقة على ظهور الخيل أو المبارزة بالسيف، فهناك حينئذ غالب ومغلوب، ومنتصر ومنهزم.

ب- ومن هذا المعنى المادى للكلمة انتقلت إلى معنى مجازي وهو ما ذكره الجاحظ من « مساجلة الخصوم بالموزون المقفى والمنثور الذي لم يقف » وهكذا أخذت المساجلة عند صاحب البيان والتبيين ثلاثة مظاهر :

- مساجلة الخصوم بالشعر

- مساجلة الخصوم بالنثر

- مساجلة الخصوم بالأرجاز : وفي هذا المظهر الثالث ربط الجاحظ بين المعنى المادى والمعنى المجرد، لأن هذه الأرجاز تقال في المساجلة عند المتح : وهو السقي من البئر بالدلاء.

ج- ولئن بدا لنا المعنى المادى للكلمة يفترض اثنين في المساجلة، فإن المعنى المجرد لا يحدد العدد في المساجلة فقد تكون بين أكثر من شخصين.

د- المعنى المادى والمعنى المجرد يشتركان في المنافسة بين المتساجلين، وفي حب التفوق على المساجل بل وتحديه.

ومن هذه المعاني المشتركة ظهرت المساجلة كمصطلح أدبي عامة، وفي ميدان المنظوم بصفة خاصة، ولكن مع الأسف لم نجد له تنظيراً مقنعا في ما بين أيدينا من كتب النقد والبلاغة، فحاولنا جمع ما أمكن لنا جمعه من التراث الأندلسي لرصد هذه الظاهرة الأدبية.

(5) المتح : السقي من البئر بالدلاء.

إنّ ظاهرة المساجلة الشعرية - حسب ما بدا لنا - ظاهرة تدلّ على ترفين فكري وحضاري معا. وهي لصيقة بمجالس الأُنس والطّرب ومطارحات الفكر والأدب. وللأندلس في ذلك نصيب وافر برياضها وحدائقها وجنانها في منى خلفائها وأمرائها وقصور وجهائها وعظمائها.

تعريف المساجلة :

تتمثّل هذا الظّاهرة في أن يقول الشّاعر نصف بيت (صدرا أو عجزا)، أو بيتا كاملا، أو أكثر من بيت في موضوع عنّ له فكرة، أو في مشهد لفت انتباهه فجأة. ثمّ يطلب (6) من جلسائه وندمائه أو خلّائه وأصدقائه إتمام ما قاله، بمثل ما قال، أو بأقلّ، أو أكثر، سواء أكان ذلك مشافهة وارّجالا، أم بديهة وروية (7)، أم مراسلة وكتابة. ويكون ذلك على نفس البحر ونفس القافية. وقد تكون المساجلة - وهذا من النّادر - بدون اشتراك في البحر القافية (انظر المغرب 183/1، 8-367).

أركان المساجلة :

نجد في كلّ مساجلة طرفين على الأقلّ، وهما : المساجل المخاطب، والمساجل المجيب. يسمّى قول الأوّل قسيما (8)، وقول الثّاني إجازة، لذا كثيرا ما يتردّد فعل الأمر « أجز » على لسان المساجل المخاطب يوجّهه إلى المساجل المجيب.

(6) قد يكون الطّالب طرفا ثالثا، وعادة ما يكون صاحب المجلس كالخليفة أو الأمير أو الوزير.

(7) صاحب البديهة والروية (التروّي) يأخذ من الوقت في إجابته أكثر من المرتجل (بدائع البدائنه ص 5).

(8) سمّى أبو الوليد الحميري في كتابه « البديع في وصف الرّبيع » القسم، مصراعا (البديع ص 158).

مصطلحاتها :

ولقيمة الإجازة ⁽⁹⁾ في المساجلة أطلقها ابن ظافر على كامل المساجلة وعرف الإجازة بقوله « أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله. وقد يكون بين متعاصرين وغير متعاصرين » ⁽¹⁰⁾ والإجازة تشترك مع المساجلة في المعنى المادي لأنها « مشتقة من الإجازة في السقي، يقال أجاز فلان فلانا إذا سقاه أو سقى له، فكأنهم شبهوا عمل الشاعر المجيز لعمل الشاعر المجاز شعره بسقي الشخص للشخص » ⁽¹¹⁾. ونجد في « بدائع البدائ » لابن ظافر مصطلحا ثالثا للمساجلة قريبا من الإجازة هو التمليط، وهو عنده « أن يجتمع شاعران فصاعدا على تجريد أفكارهم وتجريب خواطرهم في العمل في معنى واحد » ⁽¹²⁾. وبعد أن عدّد أنواع التمليط التي لا تختلف عن أنواع المساجلة من حيث المتن فرق بين الإجازة والتمليط بقوله : « إن التمليط يتفق فيه الشعراء قبل العمل، على العمل أو يندبون لذلك، وتكرر منهم المناوبة. وهذان ليسا من شروط الإجازة » ⁽¹³⁾.

والتمليط لغة : من ملط الشاعر أي قال نصف بيت وأتمه شاعر آخر، وعند ابن رشيق أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيما وهذا قسيما لينظر أيهما ينقطع قبل

(9) الإجازة إجازتان : الإجازة العلمية وهي أن يسمح المؤلف لآخر رواية ما كتب وتدرسه بعد أخذه عليه (صبح الأعشى ط. القاهرة 1919 ج14 ص322). والإجازة الشعرية : هي إتمام بيت أتى مطارحة بصدره.

(10) بدائع البدائ ص 34.

(11) بدائع البدائ ص 34.

(12) نفسه ص : 92.

(13) نفسه ص 3-92.

صاحبه (14) . ومع التمليط نجد كلمة مطارحة، لأننا نقول : طارحه مطارحة الكلام أو الشعر أو الغناء : ناظره وجاوبه فيه (15).

والهدف من المساجلة أو الإجازة أو التمليط أو المطارحة هو إظهار المقدرة على إرتجال الشعر (16) أو تحدّي المخاطب (17) أو اختباره (18). وخير مثال يجمع بين هذه الأهداف قول هنري بيريس نقلا عن المقرّي « وفي القرن 11/5 انتشرت مصانع الزّجاج الرئيسيّة حول إشبيلية. وكان المعتمد أميرها يشاهد من نوافذ قصره أفران الزّجاج تلمع في الظلام. ووصف لنا المقرّي مشهدا يظهر فيه أمير إشبيلية، وقد أرسل في طلب الشّاعر ابن حمديس في ساعة متأخرة من اللّيل. جاء على لسان هذا الشّاعر: أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عبّاد مدّة لا يلتفت إليّ ولا يعبا بي، حتّى قنطت لخبيتي مع فرط تعبّي، وهممت بالنّكوص على عقبي، فإنّي لكذلك ليلة من اللّيالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركوب، فقال لي : أجب السلطان، فركبت من فوري ودخلت عليه، فأجلسني على مرتبة فنك، وقال لي : افتح الطّاق الّتي تليك، ففتحتها، فإذا بكور زجاج على بعد، والنّار تلوّح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدّهما أخرى، ثمّ دام سدّ أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملها قال لي : أجز (المنسرح) :

انظرهما في الظلام قد نجما

قلت : كما رنا في الدّجّة الأسد.

قال : يفتح عينيه ثمّ يطبقها.

قلت : فعل امرئ في جفونه رمذ.

(14) المجالس الأدبيّة في الأندلس لعبد الله بن علي بن ثقفان ص 101 تعليق 225 ص 138.

(15) المنجد ص 463.

(16) انظر نموذجا على ذلك في « زاد المسافر » ص 130.

(17) انظر نموذجا على ذلك من النّخيرة : 346-7/1/3.

(18) انظر نموذجا على ذلك من النّفع : 160/1.

قال : فابتزّه الدهر نور واحدة.

قلت : وهل نجا من صروفه أحد (19) ؟.

فاستحسن (أي المعتمد) ذلك، وأمر لي بجائزة سنّية وألزمي الخدمة... ممّا يدلّ على أنّ الشاعر نجح في هذا الاختبار، وتبوّأ مكانته التي تليق به في بلاط إشبيلية بعد طول انتظار.

المساجلة من حيث السند :

يمكن النظر إلى المساجلة من حيث سندها أي المساجل المخاطب والمساجل المجيب فتكون بين اثنين وهو المشهور، وقد يعجز الطرف الأول أو الثاني في المساجلة فيقع اللّجوء إلى شخص ثالث لإتمام البيت فيكون التّحدّي، وتستعمل كتب التّراث فعل «أفحم» أو «أرتج عليه» للدلالة على هذا العجز، جاء في المغرب (20) أنّ الكتندي الشاعر دخل على الأعمى المخزومي ومعه نزهون القلاعية تقرأ عليه، فقال الكتندي للمخزومي : أجز (الكامل) :

لَوْ كُنْتُ تُبْصِرُ مِنْ تَكَلَّمُهُ

فأفحم الأعمى ولم يجد جواباً، فقالت نزهون :

لَغَدَوْتُ أَخْرَسَ مِنْ خِلَالِهِ

البذرُ يَطْلُعُ مِنْ أَرْضَتِهِ وَالْغُصْنُ يَمْرَحُ فِي غَلَائِهِ

وذكر المقرّي في النّفع (21) « أنّ المتوكّل على الله بن الأفطس صاحب بطليوس

لَمَّا صَنَعَ هَذَا الْقِسِيمَ (المجتبى) :

الشَّعْرُ خَطَّةٌ خَسَفَ

أرتج عليه فاستدعى أبا محمّد بن عبدون واستجازه إيّاه، فقال أبو محمّد :

(19) النّفع : 616-7/3.

(20) المغرب : 121/2.

(21) النّفع : 609/3 .

لِلشَّيْخِ عَزِيبَةَ عَزِيبٍ
لِكُلِّ طَالِبٍ عُرْفٍ
وَالْفَتَى ظَرْفُ ظَرْفٍ

وقد تكون المساجلة بين ثلاثة أشخاص كما وقع في مجلس للخليفة عبد الرحمن الناصر، ومعه وزيره أبو عثمان بن إدريس، فقد غنت جارية البيت التالي (الطويل) (22):

أَحْبَبَكُمْ مَا عَشْتُ فِي الْقُرْبِ وَالنَّوَى وَأَذْكُرُكُمْ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ وَالصَّدَى
فاستجاز الخليفة الوزير، فقال الوزير : الابتداء لأمير المؤمنين. فقال الناصر :
وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ مُهْجَتِي مَسْكَنَ الْجَوَى وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ مَقْلَتِي مَسْكَنَ السُّهْدَى

فقال الوزير :

وَمَا لِي عَنْكُمْ جُرْتُمْ أَوْ عَدَلْتُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ مِنْ بُدَى
وقد تكون بين أكثر من ثلاثة أشخاص (23).

المساجلة من حيث المتن : المساجلة من حيث المتن أنواع :

1- هناك المساجلة التي يكون فيها القسم صدرا والإجازة عجزا، ويسمى ابن ظافر هذه المساجلة بالمماتة (24). جاء في النّفع نقلا عن ابن ظافر أن المعتمد « ركب لنزهة بظاهر إشبيلية في جماعة من ندمائه، وخواص شعرائه، فلما أبعد أخذ في المسابقة بالخيول، فجاء فرسه بين البساتين سابقا، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت، وبرزت منها ثمرة قد بلغت وانتهت، فسدد إليها عصا كانت في يده فأصابها وثبتت في أعلاها، فأطربه ما رأى من حسناتها وثباتها، والتفت ليخبر به من لحقه من أصحابه، فرأى ابن جاح الصبّاغ أول من لحق به فقال : أجز (رجز) :

(22) المغرب : 178/1. انظر كذلك النّفع : 617-8/3.

(23) انظر على سبيل المثال الذّخيرة : 806-7/2/2.

(24) بدائع البدائنه ص 93.

كَأَنَّهَا فَوْقَ الْعَصَا

فقال :

هَامَّةُ زَنْجِيٍّ عَصَى

فزاد طربه وسروره بحسن ارتجاله، وأمر له بجائزة سنّية (25).

2- وهناك المساجلة التي يكون فيها القسم عجزا والإجازة صدرا. وهذا نادر (26).

3- وهناك المساجلة التي يكون فيها القسم صدرا والإجازة عجزا مع إضافة لبيت واحد (27) أو أكثر من بيت (28). قال أبو الوليد الحميري في كتابه البديع في وصف

الرّبيع: « دخلت بستانا لي مع الفقيه أبي الحسن بن علي، وكان بها باقلاء (فول) قد نور، فأخذ من نوره وصنع مصراعا (أي قسيما) وسألني إجازته ففعلت وزدت بيتا آخر. ومصراعه (الرّمْل) :

سَبَبَجٌ فِي كَأْسٍ دُرٍّ

فقلت :

أَوْ كُسُوفٌ وَسَطٌ بـُـدْرٍ

وزيادتي :

أَوْ غَوَالٍ فِي لآلٍ أَوْ غِشَاءٍ بَيْنَ فَجْرِ (29)

4- وهناك المساجلة التي يكون فيها القسم بيتا والإجازة بيتا آخر (30).

(25) النّفح : 607-8/3.

(26) البيان المغرب : 93/2.

(27) النّفح : 610-609/3.

(28) النّفح : 612-611/3.

(29) البديع في وصف الرّبيع ص 158.

(30) الفتح : 613/3.

5- وهناك المساجلة التي يكون فيها القسيم بيتا والإجازة أكثر من بيت. جاء في الذخيرة « ومن نواذر الآفاق الحلوة المساق الغريبة الاتفاق، خبر النحلي مع المعتمد بن عباد، وذلك أنه مشى بين يديه بعض نسائه، في غلالة لا تكاد تفرق بينها وبين جسمها. ولها ذوائب تخفي إيّاة الشمس في مدلهما، فسكب عليها إناء ماورد، فامتزج الكلّ لنا واسترسالا، وتشابه طيبا وجمالا، فأدركت المعتمد أريحية الطرب ومالت بعطفه راح الأدب، فقال (الكامل) :

وَهَوَيْتُ سَالِيَةَ النَّفُوسِ غَرِيرَةً تَخْتَالُ بَيْنَ أَسِنَّةٍ وَبَوَاتِرِ
ثُمَّ تَعْذِرُ عَلَيْهِ الْمَقَالَ أَوْ شَغْلَتَهُ تِلْكَ الْحَالِ، فَقَالَ لِبَعْضِ الْخَدَمِ الْقَائِمِينَ عَلَى رَأْسِهِ :
سِرْ إِلَى النَّحْلِيِّ وَخُذْهُ بِإِجَازَةِ هَذَا الْبَيْتِ، وَلَا تَفَارِقْهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهُ. فَأُضَافَ النَّحْلِيُّ إِلَيْهِ
لأول وقوع الرقعة بين يديه، هذه الأبيات (الكامل) :

رَأَيْتُ مَحَاسِنَهَا وَرَقَّ أَدِيمُهَا فَتَكَادُ تَبْصُرُ بَاطِنًا مِنْ ظَاهِرِ
وَتَمَاسَلَتْ كَالْغُصْنِ فِي دَعْصِ النَّقَا تَلْتَفُّ فِي وَرَقِ الشَّبَابِ النَّاضِرِ
يَنْدَى بِمَاءِ الْوَرْدِ مُسْبَلُ شَعْرِهَا كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ الطَّائِرِ
تَزْهَى بِرَوْتَقِهَا وَعَزُّ جَمَالِهَا زَهْوِ الْمُؤَيَّدِ بِالثَّاءِ الْعَاطِرِ
مَلِكٌ تَضَاعَلَتْ الْمُلُوكُ لِقَدْرِهِ وَعَنَالُهُ صَرَفُ الزَّمَانِ الْجَائِرِ
وَإِذَا لَمْخَتْ جَبِينُهُ وَيَمِينُهُ أَبْصَرْتَ بَذْرًا فَوْقَ بَخْرِ زَاخِرِ
فلما قرأها المعتمد استحضره وقال له : أحسنت، أو معنا كنت ؟ فأجابه النحلي

بكلام معناه : يا قاتل المحل أو ما تلوت « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » (31).

6- وهناك مساجلة يكون فيها القسيم أكثر من بيت والإجازة بيتا واحدا. « غنى أبو الحسن زرياب يوما بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بهاذين البيتين، وهما لأبي العتاهية (الكامل) :

(31) الذخيرة : 810-11/2/2. انظر كذلك مثالا يكون فيه القسيم بيتا والإجازة بيتين في القلائد ص411، ومثالا آخر يكون فيه القسيم بيتا والإجازة أكثر من بيت (خمس أبيات) في النفع 614/3.

قَالَتْ ظَلُّوْهُ سَمِيَّةُ الظُّلْمِ مَالِي رَأَيْتُكَ نَاحِلَ الْجِسْمِ
يَأْمَنُ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ أَنْتَ الْخَبِيرُ بِمَوْقِعِ السَّهْمِ

فقال عبد الرَّحْمَان، هذان البيتان منقطعان، فلو كان بينهما ما يصلهما لكان أبعد.
فصنع عبيد الله بن فرناس بديها :

فَأَجْبَتْهُمَا وَالذَّمُّعُ مُنْحَدِرٌ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهِيَ مِنَ النَّظْمِ
فاستحسنه وأمر له بجائزة « (32) ».

7- وهناك مساجلة يكون فيها القسم أكثر من بيت والإجازة مثله. جاء في البيان
المغرب (33) : أنه « كان لعبد الرَّحْمَان الثَّانِي جارية تسمى طروب كان بها دنفا،
فصدت عنه يوما وأبدت هجرانه، فأرسل فيها، فامتعت عليه، وأغلقت على نفسها بيتا.
فأمر ببنيان الباب بالخرائط المملوءة بالدراهم استرضاء لها، واستعطافا لوصلها. فلما
فتحت الباب، تساقطت الخرائط من كل جانب فأخذتها، فألفت فيها نحوًا من عشرين
ألفا. وأمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف دينار. فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظم
الأمر عليه. فقال له الأمير عبد الرَّحْمَان : « إِنَّ لَابِسَهُ أَنْفَسُ مِنْهُ خَطَرًا، وَأَرْفَعُ قَدْرًا،
ولئن راق من هذه الحصباء منظرها ورصف في النَّفْسِ جوهرها فلقد برأ الله من خلقه
جوها يغشى الأبصار، ويذهب الألباب. وهل على وجه الأرض من زبرجدها
وشريف جوهرها أَقْرَ لَعِينٍ وأجمع لزين من وجه أكمل الله فيه الحسن ونضرتة، وألقى
عليه الجمال وبهجته. ثم قال لعبد الله بن السَّمَر الشَّاعِر، وكان حاضرا : هل يحضرك
شيء في المعنى » فأنشد (طويل) :

أَتَقَرَّنُ حَصْبَاءَ الْيَوَاقِيَتِ وَالشَّدْرِ بِمَنْ يَتَعَالَى عَنْ سَنَا الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
بِمَنْ قَدْ بَرَتْ قَدَمَا يَدِ اللَّهِ خَلْقَهُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا قَبْلَهُ أَبَدًا يَبْرِي
فَأَكْرِمَ بِهِ مِنْ صَنَعَةِ اللَّهِ جَوْهَرًا تَضَاعَلَ عَنْهُ جَوْهَرُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(32) النَّفْح : 615/3

(33) البيان المغرب : 93-4/2.

فأعجبت الأمير الأبيات وطرب لها طربا شديدا. وأنشد الأمير مرتجلا (طويل) :

قَرِيبُكَ يَا ابْنَ الشُّمْرِ عَنِّي عَلَى الشَّعْرِ وَجَلَّ عَنِ الْأَوْهَامِ وَالذَّهْنِ وَ الْفَكْرِ
إِذَا شَافَهُتُهُ الْأَدُنُ أَدَى بَسِخْرِهَا إِلَى الْقَلْبِ إِبْدَاعًا فَجَلَّ عَنِ السَّحْرِ
وَهَلْ بَرَأ الرَّخْمَانُ مِنْ كُلِّ مَا بَرَأ أَقْرَ لِعَيْنٍ مِنْ مُنْعَمَةٍ بِكَرٍ
تَرَى الْوَرْدَ فَوْقَ الْيَاسَمِينَ بِخَدِّهَا كَمَا فَوْقَ الرُّوضِ الْمُنْعَمُ بِالزَّهْرِ
فَلَوْ أَنَّنِي مَلَكْتُ قَلْبِي وَنَاطِرِي نَظَّمْتُهُمَا مِنْهَا عَلَى الْجِدِّ وَالنَّحْرِ

8- وهناك المساجلة التي يتشارك فيها المساجل المخاطب والمساجل المجيب، القول دون تحديد للقسيم أو الإجازة وهذا من النوادر (34).

9- وقد يتناوب المتساجلان في المساجلة الواحدة إذا كان القسيم صدرا أو عجزا أو بيتا، والإجازة عجزا أو صدرا أو بيتا (35)، ويندر أن يتم التناوب إذا كان القسيم أكثر من بيت والإجازة مثله (36). جاء في النفع « أن أبا بكر بن المنخل وأبا بكر الملاح الشلبيين كانا متواخين متصافيين، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا في الطلب، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء، فركب ابن المنخل في سحر من الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتبه على هجاء بني الملاح ويقول له : قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفيي أبي بكر في إقذاعك في ابنه، فقال له ابنه : إنه بدائي والبادي أظلم، وإنما يجب أن يلحى من بالشرّ تقدم، فعذره أبوه، فبينما هما على ذلك إذ أقبل على واد تنقّ فيه الضفادع، فقال أبو جعفر لابنه : أجز (مجزوء الوافر) : تنقّ ضفادع الوادي

فقال ابنه : بصوت غير معتاد

فقال الشيخ : كأن نقيق مقولها

(34) النفع : 307/2.

(35) النفع : 520-21/3.

(36) الذخيرة : 402/1/1.

فقال ابنه : بنو الملاح في النّادي

فلما أحسّت الضّفّادع بهما صممت، فقال أبو بكر :

وتصمت مثل صمتهم

فقال ابنه : إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشّيوخ : فلا غوث لمهوف

فقال الابن : ولا غيث لمرتاد (37).

10- وقد يكون القسم رواية واستشهادًا والإجازة تأليفًا وارتجالًا « ذكر ابن بسّام

أنّ المعتمد بن عباد غنيّ بين يديه بقول ابن المعتزّ (المتقارب) :

وَحَمَّارَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ تَرَى الزَّقَّ فِي بَيْتِهَا سَائِلًا
وَزَنَّا لَهَا ذَهَبًا جَامِدًا فَكَأَلَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلًا

فقال بديها يجيزه :

وَقُلْتُ خُذِي جَوْهَرًا ثَابِتًا فَقَالَتْ خُذُوا عَرَضًا زَائِلًا (38)

11- وقد يقوم المساجل المجيب بتضمين القسم كاملاً في إجازته، وعادة ما يكون

هذا في المساجلة الأحجية أو المساجلة اللّغز (39) .

المساجلة الضمنية : ومن حيث المتن كذلك هناك المساجلة الضمنية، وفيها يختفي

أحد ركنيها القسم أو الإجازة : فقد يختفي القسم ونجد الإجازة، واختفاء القسم مرجعه

إلى عدم ذكر المصادر له اختصاراً ويكتفى بالإشارة إليه كالقول : « وكان خاطبه في

(37) انظر التعليق رقم 35، ومثالا آخر في زاد المسافر ص 130.

(38) النّفح : 615/3-616. وانظر مثالا آخر في النّفح : 5/3-614.

(39) البيان المغرب : 92/2.

ذلك بشعر⁽⁴⁰⁾» أو بتلخيصه إذا كان القسم نثرا كالقول : أعلمه بقدمه، وسأله بعض شعره⁽⁴¹⁾.

وقد تختفي الإجازة، ويدخل في هذا النوع من المساجلات الخطاب الذي لا يكون له جواب، ومن أروعها من الناحية الفنية والإنسانية ما صدر عن ابن عمّار يطلب افتدائه لما وقع في الأسر بشقورة. فقد خاطب كثيرا من أصدقائه القدامى كالمعتصم⁽⁴²⁾ وأبي الفضل بن حسداي⁽⁴³⁾ الخ... يطلب منهم شراءه ولكنهم لم يجيبوه تملّصا وازدراء أو تشفيا واحتقارا، كقوله مخاطبا أبا الفضل بن حسداي (الكامل)⁽⁴⁴⁾ :

أَدْرِكْ أَخَاكَ وَلَوْ بِقَافِيَةٍ كَالطَّلِّ يُوقِظُ نَائِمَ الزَّهْرِ

ومن أروع المساجلات الضمنية كذلك المساجلة بين الطائر والإنسان. فالطائر بهديله وشجوه يثير لواعج نفس المستمع فيكون هو المساجل المخاطب تخيلا وتوهما، ويكون الشاعر المنصت هو المساجل المجيب حقيقة وواقعا. وفي هذا الشعر من رقة الوجدان ورهافة الحس ما يعلو به إلى أسمى درجات الإبداع الأدبي في سبر أغوار النفس والكشف عن خفاياها، قال المعتمد مخاطبا حمامة (الطويل)⁽⁴⁵⁾ :

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ الْفَيْنِ ضَمَمَهُمَا وَكُرُ مَسَاءً وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِهَا الدَّهْرُ

وقال مخاطبا سرب قطا⁽⁴⁶⁾ :

بَكَيْتُ إِلَى سِرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرَنْ بِي سَوَارِحَ لَا سِجْنَ يَعُوقُ وَلَا كَبِلُ

(40) الحلة : 132/2، والذخيرة 383-4/1/2.

(41) الذخيرة : 68/1/2.

(42) الذخيرة : 419/1/2.

(43) القلائد : 222.

(44) نفسه.

(45) الذخيرة : 68/1/2.

(46) نفسه ص 71.

المساجلة من حيث الزمان والمكان : ويمكن النظر إلى المساجلة من حيث الزمان والمكان فنجدها على نوعين :

I- المساجلة المباشرة : وتتم في مكان واحد وزمان واحد، وهذا هو المشهور المتداول (47). ورغم أن هذا النوع من المساجلات يتم في نفس الوقت تقريبا، فقد جعلها ابن ظافر على ثلاثة ضروب :

1- الضرب الأول : المساجلة بالارتجال : وتكون الإجازة إجابة مباشرة دون تردد أو تأخير، لذا قد يعجز بعض الشعراء - ولو كانوا فحولاً - عنها، ذلك أن الارتجال عند ابن ظافر « هو أن ينظم الشاعر ما ينظم في أوحى من خطف البارق واختطاف السارق، وأسرع من التماح العاشق ونفوذ السهم البارق... حتى يخال ما يعمل محفوظاً، أو مرئياً ملحوظاً، من غير حاجة إلى كتابة (48) ». جاء في النّفع نقلاً عن ابن ظافر « أن ابن عمار مرّ على حانوت ابن جاح الصبّاغ وهو آخذ في صباغته والنّيل قد جرّ على يديه ذيلاً، وأعاد نهارهما ليلاً، فأراد أن يعلم سرعة خاطره، فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء وأشار إلى يده وقال (المجتبى) :

كَمْ بَيْنَ زَنْدٍ وَزَنْدٍ

فقال :

مَابَيْنَ وَصْلٍ وَصَدٍّ

فعجب من حسن ارتجاله، ومبادرة العمل واستعجاله... » (49).

2- الضرب الثاني : وهي المساجلة بالبدئية، وتكون بالنزول قليلاً عن طبقة المساجلة بالارتجال، وفيها يفكر الشاعر فيما سيقوله مقصراً لا مطيلاً. قال ابن الغليظ المالقي للأديب أبي عبد الله بن السراج المالقي وهما على جرية ماء أجز (الطويل) :

(47) النّفع : 178,160/1.

(48) بدائع البداهة ص 5.

(49) النّفع : 608/3، 609/3.

شَرِبْنَا عَلَى مَاءٍ كَانَ خَرِيرَةً

فقال بديها :

بُكَاءٌ مُحِبٌّ بَانَ عَنْهُ حَبِيبُ

فَأَنِّي مَشْغُوفٌ بِهِ وَكَئِيبُ (50)

.....

فَمَنْ كَانَ مَشْغُوفًا كَنُيْبًا بِالْفِه

3- الضرب الثالث : وهي المساجلة بالتروّي : وتكون إذا أطل الشاعر التفكير

والإجابة نسيبًا، وبذلك تخرج المساجلة عن حدّ البديهة إلى حدّ التروّي. جاء في النّفح

أنّ الوزير أبا جعفر بن العبّاس وزير زهير الصقلبي ارتجل قسيمها وطلب من بعض

الحاضرين إجازته. فلما أعلم ابن شهيد بالأمر اعتبر أنّه المعنيّ به، فأخذ دواة وكتب

إجازة لقسيم أبي جعفر (الكامل) :

قال أبو جعفر :

مَرَضُ الْجُفُونِ وَلَشْغَةٌ فِي الْمَنْطِقِ

فكتب ابن شهيد :

سَبَبَانُ جَرًّا عَشَقَ مَنْ لَا يَعْشَقُ

يُذَكِّي عَلَى الْأَخْشَاءِ جَمْرَةَ مُحْرِقِ

فَكَأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ عَيْنَيْهِ سُقِي

وَلَوْ أَنَّهَا كُتِبَتْ لَهُ فِي مُهْرَقِ (51)

.....

مَنْ لِي بِاللَّغْ لَا يَزَالُ حَدِيثُهُ

يُنْبِي فَيَنْبُو فِي الْكَلَامِ لِسَانُهُ

لَا يَنْعَشُ الْأَلْقَاطُ مِنْ عَثَرَاتِهَا

II- المساجلة غير المباشرة : وتكون في زمانين متباعدين ومكانين مختلفين. وتتمّ

المساجلة عادة بالمراسلة والكتابة. وتكون «بين متعاصرين أو غير متعاصرين» (52)

(50) النّفح : 610/3.

(51) النّفح : 611/3.

(52) بدائع البدائيه ص 34.

وتأخذ المساجلة بهذا المفهوم طابعا عاما فتشمل ما عرف في الأدب العربي بالنقائض والمعارضات (53).

ومن أهم أنواع المساجلات غير المباشرة المساجلة اللّغز : وهو ضرب من المساجلات يمتحن فيه المساجل المخاطب المساجل المجيب قصد التّئويه بذكائه وقدرته على فكّ الطّلاسم والمعمّيات. وهو امتحان صعب يتطلّب وقتا وذكاء وصبرا مع هدوء بال وراحة نفس من متاعب الحياة ومشاكلها «وثمة أنواع من التعمية (الأحاجي) تقوم عند الملوك والأمراء... مقام الشّقرة وتطيرير الحمام الزّاجل، وما إلى ذلك من وسائل المخابرات السريّة» (54).

وأوضح الأمثلة على ذلك ما دار بين ابن زيدون والمعتد بن عبّاد. وهذه الأمثلة التي نجد بعضها في ديوان ابن زيدون، قد تكون للمخابرات السريّة بين الرّجلين وهما على رأس أكبر دولة من دول الطّوائف تحيط بها الأخطار من الدّاخل والخارج، وقد تكون كذلك من باب التّسلية.

وتتمثّل المساجلة اللّغز أو التّعمية في أن يرسل المساجلُ المخاطب قصيدة يكثر فيها من أسماء الطّيور. وكلّ طير منها هو رمز لحرف متّفق عليه بين المتساجلين. ويتولّى المساجل المجيب جمع هذه الحروف مرتّبة حسب ورودها في القصيدة المطيّرة ويستخرج منها بيت شعر يُعرف بالبيت المعمّى يضمّنه إجابته للمساجل المخاطب (55).

المساجلة من حيث المحتوى : ويمكن النّظر إلى المساجلة من حيث المحتوى فنجدها على ثلاثة أقسام :

(53) انظر أمثلة من المساجلات بالمراسلة والكتابة : النفح : 614/3، القلائد ص 6-135، الذّخيرة :

810-11/2/2.

(54) د. ابن زيدون. ط. الكيلاني ص 281.

(55) نفسه.

1- القسم الأول : ويكون المحتوى متعلقاً بالمساجل المخاطب والمساجل المجيب بطريقة أو بأخرى. وأغلب المساجلات من هذا القسم وأهمها المطارحات الشعرية :

أ- من صديق لصديق : في المدح (الذخيرة : 394/1/2 وما بعدها، النَّفح : 351/2)، وفي الفخر (المغرب 121/2)، في العتاب (الذخيرة : 400/1/2، القلائد ص 9-128)، في الصداقة والمودة (القلائد ص 6-135، ص 2-41) في السؤال عن الصحة (شرارة : ابن زيدون ص 192)، في تبادل الهدايا (البديع ص 1-90- الحلة السَّيراء : 162-3/2، في المواساة (القلائد ص 71)، في الاستدعاء (النَّفح : 369-70/3، الذخيرة : 47/1/2، في التوديع (القلائد ص 1-130- القلائد ص 207، الذخيرة : 403/1/2، الذخيرة 66/1/2)، في التهنة (الذخيرة : 58/1/1، في الاستجداء (الحلة 12-11/2)، في إصلاح خطباً علمي (النَّفح : 6/4)، في التندر والسخرية (النَّفح : 617-8/3)، في الهجاء والتعريض (النَّفح : 536/3، 609) كقول ابن عمار وقد مرَّ على يحيى القصاب ولحم خرفانه بين يديه (المنسرح) :

لَحْمُ سِبَاطِ الْخِرْفَانِ مَهْزُولُ

فَقَالَ يَحْيَى الْقَصَابُ :

يَقُولُ لِلْمُفْلِسِينَ مَهْ زُولُوا (56)

وجاء في النَّفح أن بعض الأدباء مرَّ بمرج لأبي جعفر أحمد بن العباس بالمرية فكتب عليه (السريع) :

تَصْنَعُ فِيهِ يَاسْخِيفَ الزَّمَانِ

خَلَوْتَ بِالْبُرْجِ فَمَا الَّذِي

فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ أَمَرَ أَنْ يَكْتُبَ :

وَحَاسِدِي خَارِجُهُ فِي هَوَانِ (57)

أَصْنَعُ فِيهِ كُلَّ مَا أَشْتَهِي

(56) النَّفح : 609/3.

(57) نفسه ص 536.

وقد تتعدّد الأغراض في المساجلات بين الأصدقاء، فنجد في نفس الوقت المدح والاستهزاء (النّفح : 559/3)، والعتاب والمدح (القلائد ص 223 وما بعدها)، والإهداء والإطراء (البيدع ص 1-90، والنّفح : 612/3، 614، والبيان المغرب 57/4).

ب- من محبّ لحبيب : في العتاب وتبادل لواعج الأشواق (النّفح 173/4)، في الضنّاء (النّفح : 615/3) في طيف الحبيب يأتي ليلا. جاء في النّفح « أن الأمير عبد الرّحمان خرج في بعض أسفاره فطرّقه خيال جاريته طروب أم ولده عبد الله، وكانت أعظم حظاياه عنده، وأرفعهنّ لديه، لا يزال كلفا بها، هائما بحبّها، فانتبه وهو يقول (السريع) (58) :

شَاقَكَ مِنْ قُرْطَبَةِ السَّارِي فِي اللَّيْلِ لَمْ يَذْرِ بِهِ الدَّارِي
ثُمَّ أَنَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الشُّمْرِ نَدِيمَهُ فَاسْتَجَاذَهُ كَمَالَ الْبَيْتِ، فَقَالَ :

زَارَ فَحَايَا فِي ظِلَامِ الدُّجَى أَخْبَبَ بِهِ مِنْ زَائِرِ سَارِي
وهناك من هذا الصّنف مساجلات في جمال الحبيب (الذّخيرة 810-11/2/2)، وفي فتور العين ولتغة اللسان (النّفح : 610-11/3) في ضعف الرّجل أمام المرأة (الذّخيرة : 46/1/1 وما بعدها)، في المراودة والغزل بالمذكّر (النّفح : 561-2/3، و ص 610).

ج- من وجبه إلى عظيم : في التقدير والتّعظيم (القلائد ص 1-40)، في الاعتذار وقبوله (القلائد ص 218-219، الذّخيرة : 407-8/1/2، ديوان المعتمد ص 124 وما بعدها)، في التّقرّب من صاحب السّلطة (الحلّة : 11/2)، في التّحريض والتّهديد والشّكر (القلائد ص 52 وما بعدها).

2- القسم الثّاني : وفيه يكون موضوع المساجلة لا علاقة له بالمساجل المخاطب والمساجل المجيب، وإنّما تتعلّق بطرف ثالث، لكن تبقى العلاقة النّفسيّة بين الموضوع والمتساجلين. وهذا القسم على نوعين :

أ- المساجلة الوصفية : كوصف الطبيعة في يوم ممطر (النّفح 5/4، القلائد : ص 7-136)، ووصف الشّمس عند الغروب وانعكاسها على نهر (الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين للأوسي ص 5-164)، ووصف نهر (النّفح : 606/3)، ووصف جرية ماء (النّفح 610/3)، ووصف صباح (الأدب الأندلسي للأوسي ص 167)، ووصف ثمار (النّفح : 519-20/3، النّفح 607-8/3)، ووصف منارة (الأدب الأندلسي للأوسي ص 165)، ووصف جبل طارق : جاء في النّفح أنّ أبا الحسن علي بن موسى بن سعيد أقبل مع والده من جهة سبتة بحرا في اتّجاه جبل طارق وقد بدا كأنّه سرج. فقال والده له أجز (المجثّث) : (59)

أَنْظُرْ إِلَى جَبَلِ الْفَتْحِ حِ رَاكِبًا مَتْنِ لُجْ
فقال :

وَقَدْ تَفَتَّحَ مِنْ ثَلَالِ أَفْنَانٍ فِي شَكْلِ سَرَجٍ
ومن مواضيع المساجلات الوصفية وصف قرية «نارجة» من أعمال مالقة، وعلى نهريها العمّال يصبغون الحرير (النّفح : 178-9/1)، ووصف كور زجاج (النّفح : 616-7/3)، ووصف مجلس أنس ومنادمة وسط الخمائل ليلا (الأدب الأندلسي للأوسي ص 6-165)، ووصف مؤذن (النّفح 616/3)، ووصف رأسي قنيلين في العراء (المطرب ص 122).

ب- المساجلة الهجائية : كالتعريض بتقيل (النّفح 612-3/3)، وهجاء من صغر رأسه وطال عنقه (النّفح : 371-2/3)، وهجاء بني الملاح (النّفح 520-1/3، زاد المسافرين ص 130)، وهجاء وزير مشقوق الشفة : جاء في اختصار القدح المعلّى لابن سعيد أنّه خرج يوما مسائرا لابن سهل، فأقبل الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج في موكب « يغصّ به الرّحب، والعين تمجّه أكثر ممّا يمجّه القلب، إذ كانت طلعتّه غير

مقبولة، وراحته عن المكارم معقولة، فنظر ابن سهل إلى صورته أعلى شفته فقال ممّا يشهد له الإبداع في صفته (سريع) :

وَرَيْرُنَا يَا وَيْحَنَا أَفْلَحُ

فقال ابن سعيد :

فَهَلْ تَرَانَا مَعَهُ نَفْلَحُ

فقال ابن سهل :

يَقْرَأُ رَاجِيَهُ عَلَى فِيهِ لَا

فقال ابن سعيد :

فَحَاجَةُ الْمِسْكِينِ لَا تَنْجَحُ (60)

ج- وقد يكون موضوع المساجلة موضوعا عاما يتعلّق بالمتساجلين وبغيرهم كاغتنام فرص المِلذّات (المغرب 367/1)، والتتكرّر للصداقة (النّفح 530/3)، والاعتبار (البيان المغرب 93/2، النّفح 613/3، 539، القلائد ص 9-128)، وتعريف الشّعر (61).

المساجلات بين ابن عمّار والمُعتمد بن عبّاد مصدرا للتّاريخ :

المساجلات الّتي دارت بين ابن عمّار والمُعتمد تَمّت في مرحلتين متتاليتين من حياة الرّجلين.

1- المرحلة الأولى : مرحلة الصّفاء والمودة، دارت بين ابن عمّار والمُعتمد مساجلات مباشرة في مواضيع تبرز مدى العلاقة الوطيدة الّتي كانت تربط بين الأمير والوزير. فالمُعتمد يتبادل الهدايا مع وزيره (الحلّة : 162-3/2) وهو لا يستطيع أن يعقد مجلس أنس ومنادمة دون حضور ابن عمّار (الذّخيرة : 383-4/1/2)، وهو لا يستطيع أن يلبي نداء بعض نسائه إلّا بعد استشارة ابن عمّار، فالمُعتمد مسيرّ بمشيئة الله ومشيئة ابن عمّار (الحلّة 132/2).

(60) اختصار القدح ص 140.

(61) النّفح : 609/3. انظر ص 6 من هذا البحث.

إنّ هذه المساجلات الإخوانيّة التي انتفتت فيها الحدود بين أمر ومأمور وملك ووزير، وأصبحت العلاقة بينهما علاقة صديق بصديق ونديم بنديم هي التي توضّح لنا كيف تعلّم ابن عمّار شيئاً فشيئاً الجرأة على سيّده، وبها نفهم التّحدّي الأكبر الذي واجهه به بعد استيلائه على مرسية. ونشأ الصّدق أن تكون مساجلة، من بين مساجلات هذه المرحلة، بين المعتمد وابن عمّار واعتماد، مناسبة لأنّ تتحدّى هذه الجارية وزيرا كبيرا وشاعرا خطيرا في ميدان تفوّقه وبراعته وهو النّظم. ألم تكن هذه المساجلة التي بزّت فيها اعتماد ابن عمّار قبل دخولها قصر ابن عبّاد، وأظهرت عجزه دليلا على أنّ النفوس قد تتنافر قبل أن تتعارف (النّفح 211/4) (62) ؟

2- المرحلة الثّانية : مرحلة العداوة والبغضاء. وتبدأ هذه المرحلة بإرسال المعتمد وزيره ابن عمّار على رأس حملة للاستيلاء على مرسية من يد حاكمها ابن طاهر. وقام المعتمد لتحقيق غرضه، وبتدبير من ابن عمّار، بالتّعاون مع كونت برشلونة برنجار الثّاني مقابل مبلغ معيّن من المال وتقديم ابنه الرّشيد رهينة لدى النّصارى على أن يكون ابن أخي الكونت رهينة لديه. وأثناء حصار قوّات إشبيلية وعلى رأسها ابن عمّار وقوّات برشلونة وعلى رأسها برنجار الثّاني مرسية، أغفل المعتمد إرسال المبلغ المتفق عليه في الوقت المحدّد، فظنّ الكونت أنّه خُدع، فقبض على ابن عمّار والرّشيد، وفشل الجند الإشبيلي في تخليصهما فنكص على عقبيه مخبرا المعتمد بالأمر فأسرع بسجن رهينته.

وبعد عشرة أيّام أطلق الكونت سراح ابن عمّار فالتحق بجيآن، وكان المعتمد مقيما في ضواحيها، ولكنّه لم يتّصل به خوفا على نفسه من غضبه. وتمّت في هذه الآونة بين الشّاعر والأمير مساجلة في الاعتذار والصّتح. فقد كتب ابن عمّار إلى المعتمد (الطويل) (63) :

(62) ذُكرت برواية أخرى في النّفح : 609/3.

(63) الذّخيرة : 407-8/1/2.

أَصَدَّقُ ظَنِّي أَمْ أَصِيخُ إِلَى صَخْبِي
إِذَا انْقَدْتُ فِي رَأْيِي مَشِيْتُ مَعَ الْهَوَى
وَأَمْضِي عَزِيمِي أَمْ أَعُوجُ مَعَ الرِّكْبِ
وَأِنْ أَتَعَقَّبُهُ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي
فأجابه المعتمد :

تَقَدَّمَ إِلَيَّ مَا اعْتَدْتُ عِنْدِي مِنَ الرَّحْبِ
مَتَى تَلْقَانِي تَلْقَ الَّذِي قَدْ بَلَوْتَهُ
وَرَدَّ تَلَقَّكَ الْعُتْبَى حِجَابًا عَنِ الْعُتْبِ
صَفُوحًا عَنِ الْجَانِي رَوْفًا عَلَى الصَّحْبِ
وطمان ابن عمار هذا الرد فالتحق بالمعتمد، وتم إرسال المال إلى الكونت وأطلق سراح الرهينتين.

وتجدد طمع ابن عمار في الاستيلاء على مرسية، واستجاب المعتمد كعادته لتخطيط وزيره، فأرسله على رأس حملة ثانية إلى مرسية. وكان المعتمد يشعر بأن طموح وزيره سوف لن يقف عند حد الاستيلاء على المدينة. فقال له وهو يودعه : سر على بركة الله، لكن لا تظن أنني خب. فأجابه ابن عمار : لست خبًا ولكنك مضطر. وفي هذه الإجابة الكثير مما يختلج في نفس الوزير من أطماع.

ونجحت هذه الحملة الثانية وتم الاستيلاء على مرسية سنة 1078/471 بإعانة ابن رشيق أحد قواد الأندلس. وبلغ الطموح بابن عمار إلى الاستقلال بحكم المدينة والتكبر لسيده صاحب إشبيلية، فاستلطفه ابن عباد بأعيان الأصحاب وذكره بالأدمة والعهد التي بينهما عن طريق مساجلة خاطب بها المعتمد ابن عمار مستشهدا ببنتين لإبراهيم ابن العباس الصولي، فأجابه ابن عمار مؤكدا على علاقة المودة التي بينهما والصداقة القديمة التي تربطهما، ومنذًا بمحاولة الأعداء التفريق بينهما. جاء في الذخيرة أن المعتمد خاطب ابن عمار، معاتبًا متملًا بهذين البيتين (الطويل) (64) :

تَغَيَّرَ لِي فِي مَنْ تَغَيَّرَ حَارِثُ
أَحَارِثُ إِنْ شُورِكْتُ فِيكَ فَطَالَمَا
وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيَّرَتْهُ الْحَوَادِثُ
نَعِمْنَا وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ثَالِثُ

فأجابه ابن عمار بقوله (65) :

لَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَمَا أَنَا حَارِثُ وَلَا أَنَا مِمَّنْ غَيَّرَتْهُ الْحَوَاثِثُ
وَلَا شَارَكَكَ الشَّمْسُ فِيَّ وَإِنَّهُ لَيَنَائِي بِحَظِّي مِنْكَ ثَانٍ وَثَالِثُ

واستفحل الأمر بين المعتمد ووزيره باستمرار ابن عمار في السلوك باعتباره حاكماً مستقلاً بمرسية. ودارت بينهما مساجلة تناوبية لعب طرف ثالث فيها دور الموقد لنار الإحن والمؤجج لجمر الحقد. وهذا الطرف الثالث هو ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وعدو ابن عمار اللدود. فقد قام ابن عبد العزيز بإرسال أبيات إلى المعتمد فيها يفخر ابن عمار بنفسه قائلاً (الكامل) (66) :

كَيْفَ التَّفَلُّتُ بِالْخَدِيعَةِ مِنْ يَدَي رَجُلِ الْحَقِيقَةِ مِنْ بَنِي عَمَّارٍ
رَجُلٌ تَطَعَّمَهُ الزَّمَانُ فَجَاءَهُ طَرْفَيْنِ فِي الْإِخْلَاءِ وَالْإِمْرَارِ

فلما وصلت الأبيات إلى المعتمد ازداد حقه على ابن عمار، وكان يتميز غيظاً من تصرفاته، ولكنه كان غير قادر على مواجهته في عرينه فاكتفى بأن ذيل قصيدة ابن عمار السابقة متشفيًا منه وساخراً من أصله الوضعي، ومستهنًا من أمه وكانت تسمى شمس بالتصغير، ومشيراً إلى قرية شنبوس ببادية شلب، وكانت مقرًا لسلف ابن عمار، وبهم عرض المعتمد قائلاً (الكامل) (67) :

وَالْأَكْثَرِينَ مُسَوِّدًا وَمُمَلِّكًَا وَمُتَوَجِّجًا فِي سَالِفِ الْأَغْصَارِ
تَبْكِي عَلَيْهِمْ شَنْبُوسُ بَعْبَرَةٍ كَأَتْيِهَا الْمُتَدَافِعِ التِّيَّارِ
يَاشْمُسُ ذَاكَ الْقَصْرَ كَيْفَ تَخَلَّصْتَ فِيهِ إِلَيْكَ طَوَارِقُ الْأَقْدَارِ

(65) انظر كامل القصيدة في الذخيرة : 406/1/2.

(66) الذخيرة : 412/1/2.

(67) نفسه ص 414.

وقام ابن عبد العزيز بإيصال أبيات المعتمد إلى ابن عمّار، فردّ على سخرية المعتمد بسخرية مماثلة، ومعرّضا بيومين وهو اسم قرية قرب إشبيلية منها أوليّة بني عبّاد، قائلا (المتقارب) (68) :

أَلَا حَيَّ بِالْغَرْبِ حَيًّا حِلَالًا أَنَاخُوا جَمَالًا وَحَازُوا جَمَالًا
وَعَرَّجَ بِيُومَيْنِ أُمُّ الْقُرَى وَنَحْنُ، فَعَسَى أَنْ تَرَاهَا خِيَالًا
لِتَسْأَلَ عَنْ سَاكِنِيهَا الرَّمَادَ وَلَمْ تَرَ لِلنَّارِ فِيهَا اشْتِعَالَ
ولم يكتف ابن عمّار بذلك بل عرّض بزوجة المعتمد اعتماد وبأبنائها وأفحش في هجوه قائلا (المتقارب) (69) :

تَخَيَّرْتَهَا مِنْ بَنَاتِ الْهَجَا نِ رُمَيْكِيَّةَ مَا تُسَاوِي عِفَالًا
فَجَاءَتْ بِكُلِّ قَصِيرِ الْعَدَا لِ لَيْمِ النَّجَارَيْنِ عَمًّا وَخَالًا
سَأَكْشِفُ عِرْضَكَ شَيْئًا فَشَيْئًا وَأَهْتِكُ سِتْرَكَ حَالًا فَحَالًا
وهكذا انتقم ابن عمّار من المرأة التي بزّته وتحدّته في مساجلة سابقة.

دام حكم ابن عمّار لمرسية أكثر من خمس سنوات (من 1078/471 إلى 1083/477، تمكّن إثرها ابن رشيق مساعدته في فتحها من الاستيلاء عليها في غيابه. وهكذا وجد ابن عمّار نفسه طريدا شريدا مكسور الجناح، وأصبحت جلّ بلاطات الأندلس لا ترى فيه إلّا ذنبا محتالا وثعلبا مراوغا. فحنّ من جديد إلى بلاط إشبيلية وإلى صديقه القديم المعتمد، وحاول الرجوع إليه فقام بجسّ نبض حلمه بهذه المساجلة ومطلعها (الطويل) (70) :

أَسْأَلُكَ قَصْدًا أَمْ أَعْوَجُ إِلَى الرُّكْبِ فَقَدْ صِرْتُ مِنْ أَمْرِي عَلَى مَرْكَبٍ صَغْبٍ

(68) الحلة : 157/2.

(69) نفسه.

(70) القلائد ص 218.

فأجابه المعتمد مستدرجا إيّاه قائلا :

لَدَيَّ لَكَ الْعُتْبَى تَزَاحُ عَنِ الْعُتْبِ وَسَعْيُكَ عِنْدِي لَا يُضَافُ إِلَى ذَنْبِ

«فما أورثته هذه المراجعة إلّا نفارا، ولا زادت قلبه من النّقة إلّا خلوا وإفقارا» (71)

والتحق ابن عمّار ببلاط سرقسطة يائسا من بلاط إشبيلية. وما أن استقرّ بهذا البلاط

حتّى عاوده الحنين إلى المغامرات ونجح في بعضها لحساب بلاط سرقسطة، لكن ما

كلّ مرة تسلم الجرّة، فقد حاول الاستيلاء على حصن شقورة، لكن ابن سهيل صاحب

الحصن تمكّن من القبض عليه، فأصبح ابن عمّار معتقلا لديه. وفي هذه الأثناء صدرت

عنه مساجلات ضمنيّة لأصدقائه يطلب منهم افتدائه، لكن لم تصله منهم أيّة إجابة (72)

وسارع المعتمد في شراء ابن عمّار للانتقام منه. وأثناء سجنه في قصر المعتمد

صدرت عنه مساجلات أخرى (73) أرسلها للمعتمد وأبنائه ولكنها بقيت بدون ردّ أو

جواب. وفي ذلك دليل على أنّ الحكم كان باتّا والقضاء كان مبرما.

(71) القلائد ص 219.

(72) انظر على سبيل المثال : القلائد ص 222 - الذخيرة 420/1/2.

(73) انظر على سبيل المثال : الذخيرة 420/1/2.

الخاتمة

المساجلة أو الإجازة أو التمليط أو المطارحة كلمات تدلّ على ضرب من المباراة بين الشعراء لغايات مختلفة، وانطلقت جلّها من مفهوم ماديّ وهو التّباري في الاستسقاء بالسّجل وهو الدلو العظيم، ثمّ تحولت إلى التّباري في الشّرف، ثمّ التّباري في ميدان النّظم. وهي ظاهرة أدبيّة تدلّ على ترفين حضاري وفكري، وهي لصيقة بمجالس الأُنس والطّرب، ومطارحات الفكر والأدب، وترمي بالدرجة الأولى إلى المباراة والتّحدّي والتّفوّق.

وهذه الظّاهرة على نوعين شفاهيّة وكتابيّة، ولئن كانت الأولى هي المساجلة التّقليديّة في شكلها ومضمونها وفي هدفها وأغراضها، فإنّ المساجلة الكتابيّة اتّسعت لتشمل المطارحات الفكرية والمراسلات الإخوانيّة والمعارضات الشعريّة، وفيها نجد تقرّيباً كلّ الأغراض التّقليديّة للشّعر العربي. وأهمّ من هذا كلّهُ أنّ هذه المساجلات لصبغتها الدّائيّة يمكن أن تكون وثيقة تاريخيّة هامّة لضبط دقائق الأحداث وسبر أغوار النفوس، خاصّة إذا دارت بين كبار القوم ووجهائهم ./.